الإعجاز البياني

في القرآن الكريم

سورة المطففين

محمد مبارك المزيودي

٢٠١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو
وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾
كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ
إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ
﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى
نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ
مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟
كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟
إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ
أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ المطففين: ١ ــ ٣٦

الحمد لله رب العالمين، والثناء لوجهه هو ربي لاإله الا هو عليه توكلت، وإليه متاب، وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحابته أجمعين

﴿ سورة المطففين ﴾

مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل

مدنية في قول الحسن وعكرمة

وهي ست وثلاثون آية

من هم المطففون ؟

عرَّفتهم السورة، فذكرتهم في صورتين :

- ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ ﴾ المطففين: ٢
- ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ ﴾ المطففين: ٣

أي أنهم في حال البيع مطففون، وفي حال الابتياع أيضاً مطففون، وهذا المعنى يستلزم أن تكون الكلمة حاملة لمعنيين متضادين: الزيادة والنقصان. فهل تحمل الدلالة اللغوية هذا التعدد ؟

- **قال أهل اللغة**: المطفف مأخوذ من الطفيف وهو القليل، فالمطفف هو الذي ينقص حق صاحبه في كيل أووزن، وقيل للفاعل مطفف، لأنه لايكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف.
- والمعنى السابق مأخوذ من طفِّ الشيء وهو جانبه، وموقع هذا عن كلمة المطففِّ أنه يأخذ من جانب المكيال والميزان، أي من حواشيه وهو معنى ﴿ يُخۡسِرُونَ ﴾ .

❖ **ويُقال** : إناء طفّاف إذا بلغ الملء طفافة أي جوانبه، وهو معنى قوله: ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ ووجه التواءم بين الدلالتين أن كّلاً منهما متعلق بالتطفيف أي القليل في الكيل والميزان، فأحدهما يستوفي ذلك القليل والآخر يُخْسره، أي يُنقصه، فالمطفف هو من يستوفي ماهو له ويُخسْر مالغيره، أو هما معاً

❖ **عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :**

{ هي أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم، كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة انتهوا، فهم أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا } . رواه النسائي

فهل هذا هو الحدّ الذي ت قف عنده دلالة المطففين ؟

❖ **قال آخرون** : التطفيف يكون في الكيل والوزن والوضوء والصلاة والكلام...

❖ **وقال مالك في الموطأ**: لكل شيء استيفاء وتطفيف.

❖ **وروي عن سالم بن أبي الجعد قال**: الصلاة بمكيال، فمن أَوْفى أُوْفى له ومن طفف فقد علمتم ماقال الله عز وجل في ذلك: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾

❖ مقاطع السورة .

أدرجت هذه السورة في أربعة مقاطع:

١. **من هم المطففون ؟**

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ المطففين: ١ ــ ٦

٢- **درجات المطففين** .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ المطففين ٧ – ١٧

٣- **مآل غير المطففين { الأبرار }** .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ المطففين: ١٨ – ٢٨

٤- **المطففون والمؤمنون في الدنيا والآخرة** .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ المطففين: ٢٩ – ٣٦

التفسير والبيان

١- **من هم المطففون ؟**

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ المطففين: ١ – ٦

لاخلاف في أن المراد بالمطففين هم أولئك الذين يتلاعبون بالكيل والميزان، وفي أن إشارة صريحة إلى أن التطفيف ذنب عظيم عند الله، ومن دلائل كونه ذنباً عظيماً في دين الله أنه جاء ركناً أساساً في دعوة شعيب عليه السلام ..قال تعالى :

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ هود: ٨٤

وفي حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم :

{ يامعشر المهاجرين خِصال خمس، إن ابْتُليتم بهن ونزلْن بكم أعوذ بالله أن تدركوهنّ: لم ظهر الفاحشة في قومٍ قط حتى يُعْلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنن وشدّة المؤونة وجور السلطان ...الحديث } رواه ابن ماجه والبيهقي والبزار .

والمقصود بالسنن الجدب والقحط، وذلك بحبس ماء السماء عنهم، ويُسلّط الله عليهم حاكماً ظالماً يذيقهم صنوف الظلم وفساد الأحوال....

فالتطفيف في الميزان والمكيال ذنب عظيم، وهو ماسيتبين لنا فيما يلي من بيان :

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ المطففين: ١

❖ **ويل**: مثل كلمة ويح إلا أنها كلمة عذاب، وقد شاع استخدامها حتى غدت دالة على كل مايسؤ المرء . والويل من الله هو العذاب، وقد جاءت الكلمة دالة على عموم العذاب، وذلك من طريقين، الأول دلالتها على مطلق العذاب بدون تعيين لسمة هذا العذاب، والثاني مجئ الكلمة النكرة والنكرة في اللغة تفيد العموم.

❖ **للمطففين**: المعنى الأصل هو ماذُكر من أمر البيع والابتياع وهوالمعنى الخاص، وهذه الخصوصية في الدلالة لاتمنع من اتساع دلالة المطففين، لأن الله تعالى ذكر تحت هذه الكلمة ثلاث طوائف : الفجار، المكذبين بيوم الدين، الذين أجرموا، أي أن كل من ينطوي تحت صفة من تلك الصفات هو من المطففين. وبذلك يتجلى الإعجاز البياني في هذه الآية جلاء يغشى القلوب، فقد احتملت كلمتان لاثالثة لهما مايجب على الإنسان أن ينتهجه في الحياة الدنيا وهو عدم التطفيف، ومآل الذين يطففون يوم القيامة وهو { **ويل** }

❖ ومن وثائق عموم دلالة المطففين في الميزان قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ الرحمن: ٧ – ٩

قال النسفي: قوّموا وزنكم بالعدل، ولاتنقصوا الميزان، أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان .وكرر لفظ الميزان تشديداً على التوصية به.....

فالآيات تأمر باعتدال الميزان، ولايتحقق الاعتدال إلا بانتقاء التطفيف زيادة أو نقصاناً. وإذا لاحظنا سياق آيا { **الرحمن** } وجدناه يذكر أمر الميزان في سياق خلق السماء والأرض وإعدادهما لمعاش الإنسان، وكأن

ذكر الميزان في هذا السياق يشير إلى وجوب كون الإنسان معتدلاً مع نفسه ومع غيره ومع ماخلق الله له في الأرض، أي ان لايكون مُطِّففاً.

- وانسجام الخاص مع العام في بيان واحدٍ يستوجب تلازماً بينهما، بمعنى أنك إذا وجدت رجلاً يُطفِّف في الكيل والميزان خاصة، فإن هذا الخُلُقُ مؤشِّر على أنه مُطفف في عموم أحواله، أي أنه مشتمل على نفس خبيثه، والنفس الخبيثة لاتجدها إلا عند كل ذي خلق خبيث، فهي لذلك مطففة.
- وقد اُختُلف في موطن نزول السورة، فقيل هي مكية، وقيل هي مدنية، إلا أنه خلاف يتفق على أمرٍ واحد، وهو أن التطفيف في الكيل والميزان أمر جلل عند الله، وهو ماذكرنا شاهداً عليه من أمر شعيب عليه السلام مع قومه، **فما هو وجه الاتفاق بين الخبرين ؟**

القول بأنهما مكية دليل على عظم ذنب التطفيف، ووجه ذلك أن القرآن المكي كان معنيّاً بالإيمان بالله واليوم الآخر، ولم يكن معنياً بالشريعات، فكان في تشريع عدم التطفيف في الكيل والميزان في ذلك الأوان تنبيهاً على عظم إثم التطفيف، إذ خصّه الله من بين سائر التشريعات ليكون مواكباً لدعوة الإيمان بالله واليوم الآخر، وفي ذلك موافقة لما جاء على لسان شعيب عليه السلام.

والقول بأنها مدنية أيضاً فيه دليل على عظم ذنب التطفيف في الكيل والميزان، ووجه ذلك ان الله قدّم ذلك التشريع على سائر الشريعات التي نزلت في المدينة وهو مارُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة نزل المدينة.....

- وقد رأى بعض السلف الصالح أن الطفيف يكون أيضاً في الصلاة والوضوء وسواهما من العبادات، وهو رأي قد يكون مردوداً، وحجتنا في ذلك ان الآيات قيدّت دلالة التطفيف بالناس، وهو قوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ المطففين: ٢

فالتطفيف هو اختلال وفساد ميزان تعامل الإنسان مع الناس، وقد جاء آخر السورة شاهداً على ذلك، وهو قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾
المطففين: ٢٩ ــ ٣٠

فدين الله تعالى قائم على محورين، الأول علاقة العبد بربه، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، والثاني: علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، القائمة على كفتين حقوق وواجبات، والأصل في الكفتين ان تكونا مستويتين، فإذا اختلفت كفة عن أخرى كان ذلك هو التطفيف.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾
المطففين: ٢ ــ ٣

عرّف المولى عز وجل المطففين بهاتين الآيتين، فالمطفف هو المشتمل على الدلالتين معاً، لأنهما صفتان متلازمتان. فالفعل { **كالوا** } فعل مجرد يفيد أن المطفف هو الذي يكيل للآخرين مما هو لديه، أما الفعل اكتال، ففيه زيادة الألف والتاء، أي أنه هو من طلب من الآخرين أن يكيلوا له مما هو لديهم، وهي صيغة قياسية في اللغة، يُقال شرى إذا باع واشترى إذا طلب البيع من آخرين، أي ابتاع.....إلخ .

❖ المعنى الخاص

إن الرجل إذا كان موصوفاً بالحرص على الاستيفاء إذا اكتال والإخسار { **الإنقاص** } إذا كال، كان ذلك دليلاً بيناً على تعلقه الشديد بالدنيا، ومن المعلوم أنّ من امتلأ قلبه بطلب الدنيا تكاد لاتجد في قلبه مساحة لطلب الآخرة، وهذا الأمر من شأنه أن يجعله متلبساً بمساؤى الأخلاق وذلك ان

الحرص الشديد على الدنيا معنى مرادف للبخل، وقد قال صلى الله عليه وسلم : { **وأي داء أدوى من البخل** } .

وهو استفهام إنكاري، بمعنى أنه ليس هناك داء أكثر فتكاً بالإنسان من داء البخل، وقد فصلّ عليّ رضي الله عنه ذلك بقوله : البخل جامع لمساوئ العيوب، وهو زمام يُقادُ به إلى كل سوء، أما البيان الأعلى في ذلك فهو قوله سبحانه:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ التغابن: ١٦ والحشر ٩

ففي كل ماسبق بيان لعظم ذنب التطفيف بمعناه الخاص، الذي يكون في البيع والابتياع.

❖ **المعنى العام**

الناس في جملة أحوالهم يتقلبون مابين حق وواجب، ومن شأن المطففين أنهم يستوفون مالهم من حق على الآخرين، ويُخسرون ماعليهم من حق للآخرين ولنضرب لذلك مثالاً بما يكون من الرجل مع جاره، فكل منهما له حق عند صاحبه وعلى كلٍّ منهما واجب للآخر، وكل ذلك مدّون في شرع الله تعالى، فإذا وازن كلٌّ منهما بين الحقوق والواجبات، أي أدى ماعليه ولم يطلب من جاره إلا ماهو له لم يكن من المطففين، وأما أن اختلفت الكفتان فسوف يختل الميزان بسبب ذلك التطفيف الذي هو زيادة في كفة وإخسار في الكفة الأخرى. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

{ **لايمنع جارٌ جاره أن يغرز خشبةً في جداره** } رواه البخاري ومسلم

فجدارك ملك لك، فإذا كنت من المطففين فإنك ستستوفي ماهو حق لك فتمنع جارك من أن ينتفع بغرزه خشبة في جدارك، فتخالف بذلك نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن موازين الشريعة العامة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ **لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ماحب لنفسه** }

فـإذا بلـغ بـك الأمـر حـدّ أن تحـب لأخيـك ماتحـب لنفسـك فقـد حقـق لـديك الاعتدال في ميزان الإيمـان، فـإذا أخْسَـرْت فـي ذلـك الميـزان بـأن كـان ماتحبـه لنفسك أكثـر ممـا تحبـه لأخيـك فقـد طففـت، إلا أنـه تطفيـف يخرجـك فقـط مـن دائرة الإيمان إلى دائرة الإسلام، فلست ممن قيل فيهم { **ويل للمطففين** }.

من كـل ذلـك نـدرك ان نظـام الاسـتيفاء والإخسـار فـي التعامـل مـع النـاس نظام يمضـي علـى الكـم الكثيـر ممـا شـرعه الله ورسـوله، والبحـث والنظـر فيـه يسـدعي كتابـاً مسـتقلاً، وفيمـا ذكرتـه قبـل قليـل كفايـة للإشـارة إلـى الدلالـة العامة لمعنى التطفيف .

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ ﴾ المطففين: ٤

ألا يظـن : الهمـزة للاسـتفهام، { **لا** } نافيـه، يظـن: فعـل مضـارع مرفـوع بالضمة الظاهرة. والجـواب علـى هـذا السـؤال فـي حـال الإيجـاب { **بلـى** } وفـي حال النفي { **نعـم** } لأنـه اسـتفهام منفـي، ولبيـان وجـه الدلالـة فـي اسـتخدام هـذه الصياغة في الاستفهام نقارنه بالصياغة المثبتة:

فقد اختلفت دلالـة { **نعـم** } فـي السـياقين، لا فـي ذات دلالتهـا إنمـا فـي وجـه مراعـاة السِّـياق، فهـي فـي المثـالين للإيجـاب، فجـاءت فـي الأول إيجابـاً لقضـية موجبـة { **تظـن أن هـذا الرجـل مـريض** } وفـي المثـال الثـاني جـاءت إيجابـاً لقضـية منفيـه { **لاتظـن ان هـذا الرجـل مـريض** } فهـي إثبـات، ولكـن إثبـات لمنفيّ، وإثبات النفي نفي .

وفي الآية جاء الاستفهام عن قضية منفية، وهي : { **لايظن أولئك أنهم مبعوثون** } وفي ذلك مراعاة لمقتضى الحال،وهو أن المشار إليهم {**أولئك** } من أهل الإسلام الذين يفترض فيهم الإيمان بالبعث، ولبيان هذا الوجه الدلالي أضرب له مثالاً:

قد تمرّ على رجل وأنت لاترى منه مايشير إلى أنه غريب فتسأل صاحبك:

أتظن أن هذا الرجل غريب. فيقال لك : نعم أو لا

فإن بدا على الرجل غريب ثم قال لك صاحبك إنه ليس غريباً كان سؤالك كما يلي: **ألا ترى أنه غريب** ؟

أي أن السؤال المنفي يتوجه إلى قضية لها شواهدها، ولكن الأحوال ليست على النسق الموافق لها، وفي هذا إشارة بالغة إلى خطورة التطفيف وهو أن المسلم الذي يفترض فيه أن يكون مؤمناً بالبعث يجب الأيتلبس بصفة التطفيف، لفداحة مارصده الله للمطففين من { **ويل** } فإذا وجدت مسلماً يطفف في الكيل والميزان كانت القضية المسؤول عنها: لايظن أنه مبعوث، وذلك لأن فعله جاء شاهداً على هذه القضية .

❖ وذلك الوجه الدلالي من شأنه أن يُخرج الكفار من دائرة المطففين وكنت قد ذكرت سابقاً أن المطففين خط بياني عام لينتظم عدّة مسميات في السورة: الفجار والمكذبين والذين أجرموا والكفار، وهو مايستدعي أن يكون قوله تعالى:{ **ألا يظن أولئك** } سارياً أضاً على الكفار، فهل يحتمل ما ذكرته من بيان سريان الدلالة عليهم ؟

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ الروم: ٣٠

فالأصل الذي خُلِق عليه الإنسان هو الإيمان بالله واليوم الآخر، فهو الذي جُبل عليه خلق الإنسان، فإذا كان حاله موافقاً لفطرة الله كان ذلك اعتدالاً منه، ولكن الإنسان خطّاءٌ بطبعه، أي من شأنه أن يُخلّ ببعض ما شرعه الله له، وهو إخلال فيه معنى التطفيف، وقد يتنامى هذا الإخلال ليبلغ حدَّ الكفر بالله واليوم الآخر،وبذلك تسري عليه دلالة الآية:{**ألا يظن أولئك** } بملاحظة الأل الذي جُبِل عليه الإنسان في فطرته، لابملاحظة ما يكون عليه في وعيه المباشر.

- اسْتُخدم الفعل { **يظن** } للدلالة على الإيمان باليوم الآخر، والمعنى أن هؤلاء المطففين لو كانوا يؤمنون بأنهم مبعوثون لما طفف في الكيل والميزان ولقد لاحظت في الكتب التفسير أنهم يؤولون الفعل { **يظن** } بمعنى اليقين. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ البقرة: ٤٦

فقيل في { **يظنون** } إنها بمعنى يوقنون. وهو لعمري تجاوز في البيان، لأن المولى عز وجل لو أراد اليقين لذكره بلفظه، ولكنه عدل عنه إلى كلمة { **يظنون** } على مالها من دلالة في اللغة . فما هو وجه اختيار الظن في الدلالة على الإيمان باليوم الآخر وملاقاة الله عز وجل ؟

الظن هو أن يترجَّح لك أحد الرأيين على الآخر، أما اليقين فهو ان تبلغ شواهد العلم لديك حد الفصل الذي لاتخالطه احتمالات أخرى وقضية البعث قضية غيبية غير مشهودة، ولذلك فالإيمان بها ظنٌّ لايقين، حتى وإن كان المخبر بها من المشهود لهم بالصدق الذي لايتبدل ولايتغير، وذلك لعدم وقوف الحواس عليه ولكنه سيكون ظناً في مرتبة اليقين، فهو يقين افتراضي لايقين واقعي. ولنا شاهد على ذلك في خبر إبراهيم عليه السلام، فقد كان مؤمناً بالبعث، وإيمانه هذا كان ظناً لايقيناً، لأنه لم يشهد بحواسه أركان هذه القضية، أي أن هذا الظن كان يقيناً افتراضياً لتصديقه المطلق

بما يُوحي إليه من ربه، ومع ذلك فإن طبيعة القين الواقعي جعلته طلب من ربه أن يريه كيف يحي الموتى، فسأله ربه: { **أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي** } واطمئنان قلبه أن يصبح اليقين الافتراضي { **الظن** } يقيناً واقعياً:

{ **فقال خذْ أربعةً من الطير فصُرْهُنّ إليك واجْعَلْ على كلِّ جبلٍ منهمّ جُزْءاً ثم ادْعُهُن يأتينك سعياً واعْلَمْ أن َّالله عزيز حكيم** } .

فمهما ارتقى الإنسان في الإيمان بقضية البعث، فإن إيمانه هذا سيكون ظناً لأنه مما لاتشهده أدوات العلم { **الحواس** } فإذا قيل فيه انه يقين، فإنه يقين افتراضي لاواقعي .

❖ { **مبعوثون** } يقال في اللغة : بعثتُ البعير إذا فككت عنه قيده فقام من مريضه، وللإنسان يوم القيامة يبعثه الله من مرقده، أي من قبره، فهو في قبره مقيد بأمرالله وهو الأ ينبت ، فإذا أزفت الآزفة أطلقه الله بأن أرجع إليه الأمر { **القيد** } وألقى إليه الأمر بأن ينبت من عجب الذنب .

﴿ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ المطففين: ٥ ــ ٦

اللام في { **ليوم** } لام الغاية، أي أن الغاية من بعثهم أن يشهدوا ذلك اليوم العظيم، وقد نكِّرت كلمة يوم لأن النكرة فيها إبهام، وفي الإبهام تهويل لذلك اليوم، ثم وصف بأنه عظيم، لِعِظم مايكون فيه من حساب، ومن جنة ومن نار.

{ **يقوم لناس** } يقوم الناس يوم القيامة إلا لرب العالمين، أي لايكون لهم توجه إلا لله وحده، لأنه مالك يوم الدين الذي يتصرف وحده في أحوال ذلك اليوم، قال تعالى في أحوال ذلك اليوم:

{ **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** } .

{... **وعنت الوجوه للحيّ القيوم** } .

فالنـــاس، كـــل النـــاس، يـــوم القيامـــة لايتوجهـــون إلا لله وحـــده. وقـــد ختمـــت الآيـــة بمـــا يشـــير إلـــى هـــذا المعنـــى وهـــو صـــفته ســـبحانه { **رب العـــالمين** } فكـــل شـــيء مربـــوب لله تعـــالى، لايتحقـــق لـــه معنـــى الحيـــاة إلا بمـــا يتعاهـــده بـــه رب العالمين.

وفـــي ذكـــر { **رب العـــالمين** } تهديـــد المطففـــين، فـــإن كنـــت أيهـــا المطفـــف، قـــد قدرت على أخيك فأخـــذت حقـــاً هـــو لـــه وهولايـــدري فـــأعلم أن لـــه ربـــاً يأخـــذ لـــه بحقه منك يوم القيامة.

٢- درجات المطففين

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ المطففين: ٧ – ١٧

نقطة الوصل التـــي تصـــل هـــذا المقطـــع الســـابق هـــي { **كـــلا** } ووجـــه الاتصـــال أن المطففين يفعلـــون مـــايفعلون وهـــم علـــى مظنـــة قولـــه تعـــالى : { **ألايضـــن أولئـــك أنهم مبعوثـــون**} فهـــل الأمـــر علـــى مـــايظنون ؟ وهنـــا يـــأتي الجـــواب: { **كـــلا** } أي ليس مـــر علـــى مـــايظنون، بـــل هـــو كمـــا يلـــي وهـــي ذه التفصـــي المـــذكورة هـــذا المقطع :

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ المطففين: ٧

❖ **كلا**: لـــيس الأمـــر أيهـــا المطففـــون علـــى مـــاأنتم عليـــه مـــن غفلـــة عـــن حقيقـــة البعـــث ليـــوم عظـــيم، بـــل ســـتبعثون، وقبـــل البعـــث ســـيكون كتـــابكم فـــي سجين....

وقد عدل جل شأنه عن ذكرهم بصفتهم الأولى { **المطففين** } إلى كلمة { **الفجار** } لأن الآيات بصدد ذكر مآل يستوعب المطففين وسواهم من المكذبين والكفار، فجاءت كلمة{ **الفجار** } لتستوعب كل أولئك

فما معنى الفجار ؟

وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافق بأنه إذا خاصم فجر، وفجوره هذا يأتي على وجهين ؟ الأول أنه لايتورع عن أفدح. مايعلمه من سباب والثاني أنه يستغرق كل مايعلمه من ألفاظ السباب، وعلى ذلك فإن كلمة { **الفجار** } تمضي في خطين بيانين متوازيين :

الأول: دلالة الكلمة على الكفار، ووجه فجورهم أنهم اتو أفدح ذنب قد يأتيه الإنسان في حق الله وهو الكفر به سبحانه.

الثاني: سريان الدلالة على المطفف، ووجه فجوره أنه جعل التطفيف له عادة، لايتورع عن إتيانها كلما تسنى له ذلك. وفي ذلك إندار خطير للمطففين إذ جعل الله كتابهم مع كتاب الكفار. وهنا يليق بنا ان نلتفت إلى الصورة التي وردت فيها دلالة التطفيف، وهي صورة اسم الفاعل، والاسم يفيد ثبات الصفة، بمعنى أن الذين توعدهم الله بالويل هم الذين جعلوا التطفيف سنة غالبة عليهم، وهم لايتوبون منها.

إذا، ابتدأت السور ة بذكر المطففين وصفتهم، وبسبب أن مآل كتابهم في سجين عدل جل شأنه عن ذكرهم بصفتهم الخاصة { **المطففين** } إلى دلالة كلمة { **الفجار** } لأن ذلك المآل ليس لهم وحدهم، إنما هو مآل لكل كافر وفاجر، وهم من جملة الفجار.

❖ { **كتاب الفجار** }

الكتاب وعاء ينطق بما دُوِّن فيه، وهذا المعنى يطرح لنا ثلاثة صورة للكتاب بالذي تُدَّون فيه أعمال الإنسان:

١-**الرّوح:** ووجه كونها كتاباً أنها كون موسومةً بما كان يفعله الإنسان في الحياة الدنيا، ووجه هذه الحقيقة ان الروح قبل أن يبلغ الإنسان سنَّ التكليف تكون صفحة بيضاء، فإذا بلغ سن التكليف بدأ التدوين في هذه الصفحة، فإذا كان المكتوب { **مايعمله الإنسان** } طيباً كانت الروح طيبة، وإذا كان المكتوب خبيثاً كانت الروح خبيثة، وهو قول المصطفى صلى الله عليه وسلم فيمن حضره الموت:

{ **تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب...وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرج أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث..**} رواه ابن ماجه وصححه الألباني

٢-والصورة الثانية للكتاب هي مايدونه الملكان في سجل أعمال الإنسان، وهو الكتاب المقرؤ الذي يتلقاه الإنسان بيمناه أويسراه يوم القايمة :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ ﴾

الانشقاق: ٧ ــ ١٢

٣-والصورة الثالثة للكتاب هي سمع الإنسان وبصره ويداه ورجلاه وجلده وهو قوله سبحانه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فصلت ٢٠

فأي هذه الكتب هو المقصود بقوله { **كتاب الفجار** } ؟

❖ { **سجين** } إذا تصفحت كتب التفسير ستجد أقوالاً كثيرة في بيان هذه الكلمة، وأقرب هذه الأقوال إلى المعنى هو القول الذي اعتمد الأصل الذي اشْتُقت منه هذه الكلمة، وهو: سَجَنَ، اسم فاعل منه ساجن، وصيغة

المبالغة { سِجِّين } مثل صِدِّيق وفسِّيق وغير ذلك. أي أن كتاب الفجار في حبس وضيق شديد.

وقد جاء في الحديث الذي ذكرت بعضاً منه قبل قليل مايُبين مآل النفس الخبيثة:

{ ثم يُعرج بها إلى السماء فيُسْتَفْتح لها: فيقال: من هذا ؟ فيقال: فلان فيقال: لامرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنها لاتفتح لك أبواب السماء، فتُرسل من السماء ثم تصير إلى القبر }

أي أن الحكم على أرواح الفُجار بالمكوث في الأرض سَجْنْ لها، وحرمان لها من الانطلاق في ملكوت الملأ الأعلى.

وهذه القراءة يؤيدها ماذكر في شأن كتاب الأبرار، إذ وصف بقوله { في علّيين } ولاعلوّ في هذا الوجه إلا الملأ الأعلى، وقد أُكِّد هذا المعنى بقوله: { يشهده المقربون } أي الملائكة والأنبياء والشهداء. في حين ان كتاب الفجار لم يُذْكر معه علّو ولاشهود.

وهذا السجن بما يحمله من معنى الضيق مرتبط بما يُسَّلط على المرء من عذاب في القبر لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

{ إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حُفْرة من حفر النار } رواه الترمذي ومضمون هذا الحديث صحيح لوجود شواهد من القرآن والحديث

فكتاب الفجار حالة تأوليه بالأرواح، في سجين، اي في مقام ضيق مُتَدنٍّ وقد ذكر هذا الضيق وجهاً من وجوه العذاب في النار يوم القيامة:

﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ الفرقان: ١٣

هذا مايسري على { كتاب الفجار } حال تأويله بالأرواح، وسأعرض لغير ذلك من دلالة الكتاب في الأيتين التاليتين :

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ ﴾ المطففين: ٨ ــ ٩

❖ أسلوب { ومـاأدراك ..} أسلوب استفهام إنكاري، يحمل معنى إنكار ان يكون الإنسان على دراية بحقيقة { سـجين } على مايسّره الله له من أسباب الدراية. فإنك إذا رأيت صاحبك يذكر رجلاً، وأنت تعلم من شان ذلك الرجل أكثر مما يعلمه صاحبك قلْت له: فلان، وماأدراك مافلان، أي أن شأنه أعظم ممّا أنت على دراية به. وهذا هو شأن { سـجين } هو أعظم وأجل من أن تحيط به قدرة الإنسان على الدراية.

❖ { كتاب مرقوم }

أصل الرُقْم الكتابة، قال الشاعر

سأرقم في الماء القُراحِ إليكم ....على بُعْدِكم إنْ كان للماء راقمُ

كتب الشيء يكتبه كَتْباً وكِتابةُ، والكتاب اسم لما كُتب فهي إما مصدر وإما اسم لما كُتب مجموعاً في صفحة أو صفحات، وهو هنا بمعنى اسم المفعول، إذ ان وزن { فِعال} قد يأتي بمعنى اسم المفعول مثل إمام بمعنى مأموم. وهناك معنى ثالث وهو كل مامن شأنه ان يكون محلاً للكتابة، حتى وإن لم يكن فيه شيء مكتوب، ودليل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض وفاته:

{ **أئتوني بكتابٍ اكتبْ لكم كتاباً لاتضلوا بعده أبداً** } رواه البخاري فالمقصود بكلمة كتاب الأولى الرقعة التي يُكْتب فيها .

وقد وردت كلمة كتاب في الآيات مرتين:{ **كتاب الفجار، كتاب مرقوم** } وليس هناك في السياق مايستوجب أن تكون الكلمتان بمعنى واحد، ولهذا فإن كلمة كتاب الأولى تحمل دلالة اسم المفعول، أي مايكتبه الفجار، وهم لايكتبون بقلمٍ أو يراع إنما يكتبون بما يفعلون ومايقولون، فكل مايصدر عن الإنسان يُدّون في كتاب أعماله، وموضع كتابه هو{**سـجين**}، ولذلك نجد النسفي يقول في تأويل سجين:

سجِّين كتاب جامع، وهو ديوان أهل الشر الذي دوَّن الله فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس.

أي هو السجل العام الذي تُدوّن فيه كتب الفجار، وعلى ذلك فكلمة كتاب الثانية تعني المحل الذي تُدَّون فيه كتب الفجار، ووصف بأنه { **مرقوم** } لبيان أن الكتابة في هذا السجل العام كتابة معلقة،أي ذات علامات تميّز عمل كل فاجر عن غيره من الفجار. ولايتعارض هذا مع القول بأن أصل الرقم هو الكتابة، لأن كل علامة مدرجة في أسلوب الكتابة تحمل دلالة، فعلاًمات الترقيم: الفاصلة والفاصلة المنقوطة والنقطة....وغير ذلك تحمل دلالات تُفصِّل الكلام المكتوب وتبين أجزاءه، حتى لايختلط الكلام على القارئ، بل إن الأرقام المستخدمة في العدّ الحسابي تحمل أيضاً دلالات كتابية تقسم الكلام إلى أجزائه، فتجعله أكثر وضوحاً وجلاء

وهنا تتبين لنا دلالة { **مرقوم** } في وصف الكتاب العام { **سجين** } فأعمال الفجار جميعاً تدون في ذلك السجل، وهذه الكثرة التي لايعلم حد حدها إلا الله لايمكن لها أن تختلط ولو شيئاً قليلاً، لأن الله جعل لها رَقْماً تتمايز به أعمال الفجار من الإنس والجن .

ووصف هذا الكتاب بأنه { **سجين** } لايمنع من وجوده في السماء، لأن الله تعالى قادر على أن يجعل له مكاناً ضيقاً معزولاً عن أنوار الملأ الأعلى، وقد علمنا أن الملأ الأعلى سبع سموات، فلم لايكون { **سجين** } في أدنى سماء، وهو الأقرب إلى المقصود من جعله في الأرض السابعة أو تحت صخرة أو تحت خد إبليس يؤيدنا في ذلك ماجاء في الأثر من تعاقب الملائكة على العباد في الليل والنهار ورفع أعمالهم إلى السماء، فكل مايعمله الناس من خير أو من شرٍّ يصعد إلى السماء، فإن كان الرجل من الفجار دوِّن عمله في سجين، في السماء الأولى، وإن كان من الأبرار عرج إلى علِّين، إلى السماء السابعة، حيث يشهده المقربون

❖ وهذا المعنى الذي فصّلته في شأن كتاب الفجار لايتعارض مع دلالة الكتاب على الروح، وعلاقة هذا الكلام بما سبق ذكره من أمر المطففين هو تحذيرهم من عاقبة التطفيف في الكيل والميزان، إذ من شأنه ان يُدْرِجهم في كتاب الفجار. وتذكيرهم بأن كل مايقترفونه من تطفيف لايغيب عن رب العالمين، بل يدونه الله في { **كتاب مرقوم** } لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيحاسبهم عليه يوم القيامة بالويل، أي العذاب .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ ﴾ المطففين: ١٠ – ١١

❖ **ويل**:تعني عذاب، فهي نكرة والنكرة تفيد العموم، فدلالة ويل دلالة عامة.

المطففين: لها دلالتان خاصة وعامة، فهي بذلك ذات دلالة عامة.

المكذبين: دلالتهما عامة، لأن الكافر مُكذّب، والمسلم إذا خالف أمر من أوامر ربه كان مكذباً بذلك الأمر.

❖ لقد ابْتدئت هذه الآية بكلمة { **ويل** } وكأنها عطف على تلك الواردة في أول السورة إلا أنه تم استبدال كلمة المطففين بكلمة { **المكذبين** } وقد حُصر ذلك التكذيب فين كّذب بيوم الدين، وهو ماتم الالتفات إليه عند تقييم ما يفعله المطففون،وهو قوله تعالى{**ألايظن أولئك أنهم مبعوثون** }. فالمطفف يفعل فعل من يكذب بيوم الدين، فلوكان قلبه ممتلئاً بالإيمان بيوم الدين لما فضّل الفتات من خير الدنيا على النجاة من عذاب النار. ولأن دلالة { **الفجار** } دلالة عامة تشمل الكافرين والمسلمين الغافلين عن اليوم الآخر، جيء بلفظ { **المكذبين** } ليسير البيان في خط واحد، وهو دلالة التكذيب بيوم الدين على الكافر وعلى المسلم المطفف بالمعنيين الخاص والعام.

❖ { **يومئذ** } إشارة إلى اليوم المذكور من قبل في سياق المطففين: { **ألايظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين** }

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾ المطففين: ١٢

عقد المولى عز وجل في هذه الآية بين الإيمان بيوم الدين وبين ماشرعه للعباد في كتابه الكريم، وقد استخدم أسلوب الحصر: { ما + إلا } لتأكيد هذا التلازم والتعاقد. وقد التفتت الصفتان { معتد أثيم } إلى شقي التشريع، وهما الأمر والنهي، فالمعتدي هو الذي يتجاوز حداً أُمِر بألاّيتجاوزه، فاعتدى على ذلك الحد بأن تجاوزه، والمراد هنا هو كل تشريع جاء بصيغة الأمر { افعل } أما الأثيم مقترف الإثم، وهو ماجاء في القرآن بصيغة { لاتفعل } ومن المعلوم أن الله عز وجل لاينهي عباده عن شيء إلا وكان ذلك الشيء مشتملاً على أذى أو شر أو رجس، ولذلك يُقال لفاعله آثم أومقترف للإثم.

وقد جاءت كلمة { أثيم } على وزن من أوزان المبالغة، للدلالة على أنه مسرف في فعل ماحرّمه الله، بينما جاءت كلمة { معتد } على صيغة اسم الفاعل من غير الثلاثي، وقد جمعت الصفتان وقُرِن بينهما للدلالة على حضورهما معاً في ذاتي كل مكذب بيوم الدين، ولأن التكذيب بيوم الدين صفة عامة تشتمل الكافر والمسلم العاصي، فإن الصفتين { معتد أثيم } أيضاً فيهما دلالة العموم أي حضورهما لدى الكافر والمسلم، فالكافر أُمر بعبادة الله وحده فلم يقف عند حدّ الأمر، بل تعداه فكان من المعتدين، ونهاه الله عن أن يقترف إثم الشرك به سبحانه، فخالف النهي، وجعل لله شريكاً، فكان أثيماً .

والمسلم كذلك، إلا أن اعتداءه وإثمه ليسا فيما يخص التوحيد، إنما في فيما شرعه الله له بافعل ولا تفعل. ولأن الآيات يجمعها خط واحد، وهو خط المطففين، كانت الصفتان { معتد آثيم } صفتين لازمتين لكل مطفِّف.

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ المطففين: ١٣

هذه الآية بيان لحال المعتدي الأثيم مع آيات الله، فهو لايقابلها بالتصديق والإجلال، بل يستهين بها، ويرى أنها أساطير جمع أسطورة، وتعني في

اللغة الأباطيل، وقال : سطَّر فلان على فلانٍ إذا زخرف له الأقاويل ونمقها. والغالب في نص القرآن أن يكون هذا القول من قول الكافرين وفي هذه الحالة ستكون الآية في خط بياني مغاير للخط العام في هذه السورة، وهو الدلالة على كل مخالف لدين الله، كافراً كن أم مسلماً آثماً، ولذلك كان لزاماً بيان وجهة نسبة { قال أساطير الأولين } إلى المطففين والعصاة من أهل الإسلام:

كن الكفارعلى منهاج حياة خاصٍّ بهم، وكانوا يرون أنهم على خير نظام وأمثلة، فهم لايرضون به بديلاً. فجاءهم محمد لى الله عليه وسلم بآيات تنطوي على منهاج حياة مُغاير لما هم عليه. فوصفوها بأنها أساطير،اي أقوال مُنّمقة، إلا أنها ذات مضامين باطلة، ووجه البطلان فيها أنها لاتتوافق مع المنهج السوي لمعاش الإنسان { هذا في ظنهم هم } فهل لهذا المعنى من واقع في حال المرء المسلم إذا كان عاصياً ؟

بالنظر إلى أن اسم السورة كان الخط البياني الرئيس فيها، وهو كلمة { المطففين } المتعلقة بما يكون من أحوال التجارة، والكيل والميزان، فإن المطفف مؤهل لأن يقول مثل قول الكافر { أساطير الأولين } ولكنه لا يقول ذلك من باب نكران أن ماشرعه الله ورسوله في الكيل والميزان ليس وحياً من السماء، إنما من باب أن تلك الأنظمة غير صالحة لأن يتعامل المرء بها في هذا الزمان، فهو ينظر إليها على أنها أساطير أي أقوال جليلة إلا أن مضامينها غير صالحة لأن كون منهاجاً متبعاً في التجارة .

وفي غير التطفيف نجد أيضاً أثراً لذلك القول، وذلك في العديد من أخلاق الإسلام التي ينظر إليها البعض على أنها أساطير، أي مناج حياة غير صالحة لآن، تكون مناهج متبعة في التعامل مع الآخرين .

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ المطففين: ١٤

{ كلا} : كانت الرؤية الفكرية للمكذبين بيوم الدين أن هذه الآيات التي ماهي إلا أساطير بالمعنى الذي فصّلنه قبل قليل، فهل هذه الرؤية رؤية

عقلية صحيحة ؟ كلا، وهذا هو موضع ذكر { كلا } من السياق، ثم بين سبحانه أن رؤيتهم رؤية غير صحيحة، لأن أداة العقل لديهم أداة سقيمة، وهذه الأداة هي القلب، فالإنسان يعقل بقلبه لابدماغه، قال تعالى

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

الحج: ٤٦

فما هو الران ؟

يقال: ران على قلبه ذنبه يرين ريناً وريوناً، اي غلب، وران عليه النعاس إذا غطّاه. قال الشاعر:

وكمْ ران من ذنْبٍ على قلبِ فاجرٍ فتاب من الذنب الذي ران وانجلى

أي أن هؤلاء المكذبين كانوا أصحاب آثام، فرانت هذه الآثام على قلوبهم، فجاءت رؤيتهم الفكرية رؤية فاسدة، وقد فصل المصطفى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله :

{ **إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صُقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله في كتابه { كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون** } رواه الترمذي

وفي هذا المعنى أيضاً حديثه صلى الله عليه وسلم:

{ **تُعْرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً، فأي قلبٍ أُشْرب بها نُكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير قلبين: على أبيض مثل الصفاء، فلا تضرّه فتنة مادامت السموات والأرض. والآخر أسود مُربادّاً، كالكوز مُجَخّياً، لايعرف معروف، ولاينكر منكراً إلا ما أُشْرب من هواه** } رواه مسلم

فإذا كان القلب هو أداة العقل لدى الإنسان، ثم علمنا أن النشاط العقلي { **الفكري** } يجري في الدماغ، علمنا أن الرؤية الفكرية تأتي بعاً لحالة القلب، وقد قال صلى الله عليه وسلم:

{ **اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل** } رواه الترمذي.

وعلاقة ذلك بقلب المؤمن المصقول أن قلبه إذا كان أبلغ في بث نور الله إلى مراكز الإدراك في الدماغ، فتتسع بفيض ذلك النور مساحة الرؤية، فبذلك يدرك المؤمن من الحقائق مالا يدركه سواه. وهؤلاء الذين كذبوا بيوم الدين وصفهم رب العالمين بصفتين لازمتين { **معتد أثيم** } ولم يتوبوا مماهم عليه، فكثر الران على قلوبهم فاسودّت، فتناقصت مساحة النور الواصلة إلى مراكز الإدراك في الدماغ، فتناقصت بذلك قدرتهم الفكرية في تميز الحق من الباطل، فقد يرون الباطل حقاً والحق باطلاً، ومن ذلك حكمهم على آيات الله بأنها أساطير الأولين.

❖ وهذا الباب في معنى الرّان يمضي على من كان كافراً ومن كان مسلماً ولايقف على المسلم عند حد التطفيف بل أنه يمضي إلى غير ذلك مما يندرج تحت باب { **معتد أثيم** } ولذلك كان من الضروري لكل مسلم أن يستغفر ربه دائماً فلا يترك ذلك الران يتراكم على قلبه، وقد قال صلى الله عليه وسلم.

{ **أني ليغان على قلبي حتى أستغفر ربي في اليوم مائة مرّة** }

وهو أطهر خلق الله، وقد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر.

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ المطففين: ١٥

❖ { **كلا** }

مع { **كلا**} السابقة رأينا كيف أنها أفادت نفي الصحة عن قول المكذبين في آيات لله إنها أساطير الأولين، وذكر من بعد ذلك الباعث الفعلي على إعراضهم عن مضامين آيات الله. وفي هذه الآية أيضاً نجد نفس المسار ولكن من وجه آخر، وهو { **كلا**} أي ليس الأمر على مايظنون من ان مايسمعونه أساطير الأولين، بل هو حق اليقين، ويسيشهدون ذلك يوم الدين إذ يُحْجبون عن رب العالمين ويَصْلون الجحيم ويقال لهم هذا الذي كنتم به تكذبون. وكأن هذه الآيات هي الرد المباشر لتكذيبهم، وان الآية السابقة لها

إنما جاءت معترضة بين النصين، لبيان سرِّ إعراضهم عن آيات الله. وفي هذه الحالة تكون { كلا } في هذه الآية بدلاً من الأولى أو تأكيداً لها.

❖ { لمحجوبون }

الحجب عن رب العالمين لايعني بالضرورة عدم رؤيته، بل قد يعني الحرمان من التعرض لرحمته، وهو ماذُكر صراحة في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قوله:

{ ثلاثة لايُكلِّمهم الله يوم القيامة ولايُزّكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماءٍ بالطريق يمنع منه لبن السبيل، ورجل بايع إماماً لايبايعه إلا لدنياه، إن أعطاه ما يريد وفي له والإ لم يف له. ورجل يبايع رجلاً بسلعة بعد العصر، فحلف بالله لقد أعطى بها كذا وكذا، فصدّقه، فأخذها ولم يُعْط بها } رواه البخاري ومسلم .

فقوله { لايكلمهم، ولايزكيهم } هو معنى من معاني حجب هؤلاء الثلاثة عن الله، ولازم هاتين الكلمتين هو حرمان هؤلاء الثلاثة من رحمة الله، وقد وُثق هذا المعنى بقوله: { ولهم عذاب أليم } . وأحد هؤلاء الثلاثة معدود في جملة المطففين، لأنه باع رجلاً سلعة فأخذ عليها ثمناً أكثر مما تستحقه، ولم يتورعْ عن اسخدام الجلالة في تمرير ذلك الخداع والكسب الحرام .

فالمطففون محجوبون عن رحمة الله، فهم مُدْرجون في سجل الفجار والمكذبين بيوم الدين، وذلك لما بيناه من دلالة هذه وتلك. والحجب عن رحمة الله يستوجب دخول النار، وهو قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ المطففين: ١٦

❖ { ثم } حرف عطف يفيد الرتيب مع التراخي، اي أنه هناك مهلة بين الحجب عن رب العالمين وبين دخول النار، وفي ذلك دلالة على إعراض الله عنهم، وتركهم يكابدون عذاب توقع العذاب .

❖ حى إذا نالوا نصيبهم من ذلك العذاب أُلْقي بهم في العذاب الأكبر، عذاب النار، وقد أُكِّدت الجملة بموكِّدين إن واللام، وفي تعداد أدوات التوكيد

قطع لكل احتمالات النجاة من النار لدى المطففين والفجار والمكذبين بيوم الدين.

❖ وصلى النار هو مباشرتها، وقد اختير الاسم { صالوا } ولم يُخْتر الفعل يصلونها، والاسم في اللغة يُفيد الثبات، ووجه الثبات في شأن المطففين هو حتمية دخولهم النار. وكأن هذه الاسمية جاءت لتكون المؤكد الثالث.

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ المطففين: ١٧

❖ استخدم حرف العطف {ثمّ } مرّ' أخرى بدلابة المذكورة قبل قليل، أي أنهم ستمضي عليهم مهلة متراخية قبل أن يقال لهم ذلك، فلماذا ؟

أهل النار لايكفون عن طلب الخروج من النار أو التخفيف من عذابهم. فإذا تسنى لهم التخاطب مع الله أو مع الملائكة او مع المؤمنين كان ذلك بارقة أمل لهم حتى وأن كانت وهماً. ولذلك جاءت { ثم } في سياق عذاب المطففين والفجار والمكذبين، لبيان أنهم يتقلبون في النار، ولايجدون من يخاطبونه ممن قد يجدون لديه شيئاً من الرحمة، وفيما يلي جملة من الآيات تتوجه إلى هذا المعنى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ غافر: ٤٩

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ المؤمنون: ١٠٧ ــ ١٠٨

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأعراف: ٥٠

❖ وبعد { ثم } يقال لهم { هذا الذي كنتم به تكذبون } والحكمة من هذا القول أن تغشاهم الحسرة على مافاتهم من الخير، وفي ذلك عذاب نفسي فوق العذاب الجسدي، وقد ذكرت ردة فعل هؤلاء على ماقيل لهم في موضع آخر من من كتاب الله، وهو قوله تعالى

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ الفرقان: ٢٧

٣-مآل غير المطففين { الأبرار }

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ المطففين: ١٨ – ٢٨

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾ المطففين: ١٨

هذه الاية فيها ثلاثة ملاحظ :

❖ { كلا } ذكرت سابقاً أن هذا الحرف يفيد نقض ماسبقه نقضاً كلياً أو جزئياً، وإثبات مابعده مع وجود رابط دلالي لازم بين السياقين، أما هذه الآيات فإنها مغايرة تماماً للمذكور تمام المغايرة قبل { كلا } فالحديث هنا عن الأبرار، وما قبلها عن الفجار. ولذلك فإن الوجه الأمثل لدلالة { كلا } دع عنك خبر الفجار، إشارة إلى هوان أمرهم، والتفت إلى خبر الأبرار. مثال ذلك في نمط البيان أنك إذا وجد ت الرجل يشغل نفسه في الحديث في أمر هين وقد ترك الحديث عن الأمر الجليل، قلت له دع عنك ذا واذكر كذا وكذا، أي ان { كلا } في هذا الموضع تعني: دع عنك خبر الفجار، وانظر إلى خبر الأبرار.

❖ { كتاب الأبرار }

الأبرار جمع بَرّ وبار، وقد ذكر أهل اللغة في بيان دلالة { البِر } معاني كثرة، إلا أنني سأُعرض عن سردها، وأكتفي بتعريف رب العالمين للكلمة:

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ البقرة: ١٧٧

وقد مرّ معنا في صورة الانفطار كيف قسم الله الناس يوم القيامة قسمين:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ الانفطار: ١٣ – ١٤

وذلك لأن لفظ { **الفجار** } يستوعب الكفار والعصاة من أهل الإسلام، أي ان المسلم إذا أصرّ على مخالفة البرّ في شيء مما ذكره الله في الآية الكريمة فتح الباب على نفسه ليكون من الفجار.

فهل هناك من موقعٍ لذكر الأبرار في السياق العام للسورة ؟

بينت الآيات أن المطففين من جملة الفجار، إشارة إلى أن التطفيف في الكيل والميزان ذنب عظيم. وعْدل الله العليم الحكيم يستدعي أن يكون الإنصراف عن هذا الذنب ذا أجر عظيم، ولذلك ذكر الله تعالى كلمة { **الأبرار** } إشارة إلى ذلك الأجر العظيم، وشاهدنا في ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

{ **التاجر الأمينُ الصَّدُوق مع النبيين والصّديقين والشهداء**} رواه الترمذي

أي أن التاجر الأمين الصدق، الذي لايطفف في الكيل والميزان هو من زمرة الأبرار حتى وإن كان مقصراً في بنود تعريف البر، وفي ذلك إشارة

إلى أن ترك التطفيف من كفارات الذنوب العظام، ويفضي بصاحبه إلى مقام عليين مع النبيين و الصديقين والشهداء.

❖ { **في عليين** }

إن الله عز وجل لايسمِّي شيئاً باسم ما إلا وكان ذلك الشيء مشتملاً على دلالة هذا الاسم، ومن ذلك تسمية كتاب الفجار باسم { **سجين** } وتسمية كتاب الأبرار باسم { **عليين** } ومن دلالة اللفظ نفهم أن كتاب الأبرار في المكان الأعلى من السماء، والذي يقتصر على المقرّبين من الله عز وجل. وفي إطلاق دلالة { **سجين** } على كتاب الفجار إشارة إلى خلّوكتاب الأبرار من دلالة السجن، أي أنه حرّ طليق، وفي إثبات هاتين الصفتين للكاتبين ندرك أن كتاب الفجارفي عذاب، وكتاب الأبرار في نعيم. فكيف يكون ذلك ؟

إن الوقوف بمعنى الكتاب عند حدّ التدوين المجرد لايحقق معنى السجن ومعنى الحرّية والانطلاق، وكنت قد ذكرت أن دلالة الكتاب تمضي على ثلاثة مستويات: الروح والتدوين وأطراف جسد الإنسان، فإذا نظرنا إلى هذه المستويات وجدنا أن الدلالة الأمثل لكلمة كتاب فيما يوافق دلالتي السَّجن والحرية هي دلالة الروح. وهو مانجد له نصوصاً تؤيده وتحققه، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

{ **إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه** } رواه مالك والنسائي وأبن ماجه ، وقال الألباني صحيح .

فروح المؤمن { **البار** } في عليين، وعلّيون تمضي للدلالة على السَّماء السابعة، حيث تكون الجنة، وحيث يقطن المقربون من رب العالمين. وتفصيل ذلك في الآيات الثلاث التالية:

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ ﴾ المطففين: ١٩ ــ ٢١

ذكرُ فيما سبق دلالة { **وماأدراك** } على عظم شأن ما يُخبر به المولى عز وجل، وفصلت قبل قليل دلالة { **علّيون** } على الملأ الأعلى حيث تكون

الجنة و المقرّبون، وفيما يلي بيان لوجة دلالة { **كتاب مرقوم** } على مايكتبه الأبرار ؟

ورد في الحدث السابق أن نسمة المؤمن، اي روحه، طائر يعلق في شجر الجنة، وقد ذكر في تفصيل { **كتاب الفجار** } أن قوله تعالى { **كتاب مرقوم** } يعني السجل العام لما يكبه كل فاجر في الحياة الدنيا، وهو مأطلق عليه النسفي لفظ: الديوان الجامع . فهل تسري دلالة الديوان الجامع

على الأرواح حال كونها هي المقصودة بقوله { **كتاب الأبرار** } ؟

قال صلى الله عليه وسلم في شأن الشهداء :

{ **أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل** } رواه مسلم .

نص الحديث يشير إلى موقع محدّد يُعد مسكناً لأرواح الشهداء، وهو قناديل معلقة بالعرش، وعلى ذلك فهو الديوان الذي يجمعها، وهي ليست مسجونة، بل حرّة طليقة تتسْرح في الجنة حيث شاءت، ثم تعود إلى محلها { **كتاب مرقوم** } خاص بالشهداء وقياساً على ذلك فإن أرواح الأبرار لها كتاب مرقوم، وهومأواها الذي تأوى إليه بعد أن تسرح في الجنة حيث شاءت، أما أرواح الفجار فمسجونة في المحل الذي هي فيه مكانٍ متدنٍّ، قياساً على وصف كتاب الأبرار بصفة { **عليين** } .

واختيار الروح تأويلاً لكلمة { **كتاب** } لايتعارض مع مااخترته من قبل من دلالاته على السجل الذي تدَّون فيه أعمال الإنسان، فكلٌّ منهما متحقق، أي هذا وذاك

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ المطففين: ٢٢

أمْضى المولى عز وجل الحديث عن الفجار وعن الأبرار على نسق واحد، وذلك بأن ذكر مايكون من حالهم بعد الموت وقبل البعث:

❖ ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ المطففين٧ ــ٩

❖ ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ ﴾

المطففين: ١٨ ــ ٢٠

❖ ثم أتبع ذلك بذكر مآل منهما يوم القيامة:

❖ ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ المطففين: ١٠

❖ ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الين: ٢٢ ــ ٢٣

كلمة { **نعيم** } جاءت نكرة، والنكرة تفيد العموم، أي التعدد، وقد اختيرت هذه الكلمة تحديداً لأن الأبرار ليسوا في درجة واحدة، بل هم درجات عديدة، وكل درجة لها نعيم يتناسب مع مقامها،فجاءت كلمة{ **نعيم** } نكرة لتشمل كل تلك الدرجات .

﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ المطففين: ٢٣

الأرائك: جمع أريكة وهي السرير المنجَّد المزّين في قبة أو في بيت وقد ذُكرت هذه الآية مرّة أخرى في آخر السورة، فكان في إثبات نصّها مرتين إشارة إلى عظم وجلال هذه النعمة. **فما هي آفاق هذه النعمة ؟**

الفعل ينظر فعل لازم يتعدى بالحرف، فنقول : ينظر إلى كذا. إلا أنه جاء في الآية مجرداً من بيان وجهة النظر، ليفيد بذلك عموم ماينظر إليه البار في الجنة من نعيم. ومما جاء في القرآن في بيان المنظور إليه قوله تعالى:

﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ القيامة: ٢٢ ــ ٢٣

﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ الإنسان: ٢٠

وجاء في الحديث القدسي:

{ **أعددت لعبادي مالاعين رأت، ولاأذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر** }

فأشار بقوله: { **مالاعين رأت** } إلى نعيم عظيم متعلق بالنظر، بل وقدَّم ماتراه العين إشارة إلى أنها النعمة الأعظم، ويكفينا دليلاً على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

{ **إذا دخل أهل الجنة قال الله تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم فيقولون: ألم تُبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل** } رواه مسلم .

وسوف أعرض المزيد من آفاق { **ينظرون** } فيما يتلو .

﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ المطففين: ٢٤

مر معنا في سورة عبس قوله تعالى:

﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ عبس: ٣٨ ــ ٤٢

وذكرنا هناك أن وجه الإنسان هو الصفحة الوحيدة في تكوين الإنسان التي تفصح عما يعتمل في نفسه. وهاهي هذه الآية تذكر نضرة النعيم أي بهجته وغضارته، والنضارة التي تُعرف في وجوههم تمضي إلى وجهين متلازمين :

الأول: نضارة وجوههم، أي أن من ينظر إلى وجوههم يراها نضرة، وهو قوله تعالى :

{ **وجوه يومئذ ناضرة** } .

الثاني: نضارة النعيم الذي يتقلبون فيه، وإذا كانت النضارة في الدنيا غير مستقرة، أي يعتريها النقصان والزوال، فإن نضارة النعيم في الجنة نضارة لايعتريها نقصان، بل هي في ازدياد وتجدد دائمين، ولأن نضارة الوجه دليل على نضارة النعيم، فإن النضارة في وجوه الأبرار نضارة متزايدة ومتجددة بلا انقطاع، فهم في شباب دائم لايعرفون شيخوخة ولاكآبه

ولاهماً ولاغماً ومما يشير إلى هذه الزيادة الدائمة في نضارة الوجوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

{**إن في الجنة لسوقاً يأتوها كل جمعة، فتهبُّ ريحُ الشمال فتحثو في وجوههم وأثوابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً. فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعد نا حسناً وجمالاً**} مسلم

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ المطففين: ٢٥

الرحيق: الخالص الصافي من الخمر. هذا الغالب في معنى الكلمة في كتب اللغة. وقد ذكر مع ذلك أنها تعني الشراب الصافي على العموم، وكل منهما وارد، لأن الجنة فيها كل ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

فما هي فائدة وصف هذا الرحيق بأنه مختوم ؟

جعل الله في الدنيا خمراً، وحرّمها على عبادة المؤمنين، ابتلاء لهم وحفظاً لهم من مضارها، وجعل في الجنة أنهاراً من خمر لذة للشاربين، وسلب منها كل مامن شأنه الإضرار بالإنسان، وهو قوله تعالى:

﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الواقعة: ١٩

وقد عهد الناس في خمر الدنيا أن تكون على حالين: خمر قريبة العهد بالإعداد، وخمر عهدها قديم، أي معتقة، وقد وجدنا النصارى في شربهم لها يفضلون الخمر المعتقة، بل ويدفعون في شرائها مبالغ ضخمة، وهذه الخمر المعتقة تجهّز ثم تغلق { **تختم** } وتبقى على ذلك أزماناً طويلة.

والخمر يوم القيامة مبدولة للجميع. فهي أنهار دائمة، أما الرحيق، حال تأويله بالخمر، فهو خمر معتقة { **رحيق مختوم** } قد اكتسبت بذلك الختم خصائص غير حاضرة في الخمر المبدولة.

وفي حال تأويل الرحيق بالشراب الصافي فهو شراب آخر غير الخمر، لذكر الخمر في جملة أنهار الجنة، وهذا الشراب رحيق أي هو خلاصة

مااستنبط منه فهو مركز، ولذلك يتم مزجه بماء عين في الجنة تسمى { تسنيم } .

❖ قوله { يُسْقون } يشير إلى أن ا لبّار لايتكلف إعداد وجلب ذلك الشراب بل يُؤي به إليه وهو متكئ على أريكته، قال تعالى

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ الواقعة: ١٥ ــ ١٨

﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ المطففين: ٢٦

❖ أي أن هذه الأوعية المشتملة على ذلك الرحيق خُتِمت { أغلقت } أفواهها بالمسك.و المسك معروف برائحته الطيبة، وإذا كان الناس قديماً يختمون أفواه دنان الخمر بالطين، فإن الطين الذي تُختم به أفواه الرحيق من مسك، وقد قال صلى الله عليه وسلم في صفة تربة الجنة:

{ إن ترابها المسك } رواه البخاري ومسلم

وفي وصف ذلك الختم بأنه مسك إضافة جليلة إلى خصائص ذلك الرحيق والتي تتوجه إلى ثلاثة مسارات:

الأول: امتزاج ذلك الرحيق برائحة المسك.

الثاني: فإذا شرب البار من ذلك الرحيق كانت رائحة المسك من جملة مايمتزج بجسد البار من ذلك الرحيق، وقد قال صلى الله عليه وسلم في صفة أهل الجنة: { ورشحهم المسك } رواه البخاري. ومسلم. أي رائحة عرقهم المسك.

الثالث: جمع المولى عز وجل بذكر المسك مع ذلك الرحيق حاسة الشم مع حاسة الذوق، وذلك بعد أن ذكر مايشير إلى متعة البصر في قوله: { على الأرائك ينظرون } .

❖ ثم أشار رب العالمين إلى أن ذلك الوصف يقصر عن بيان مقدار اللذة في ذلك الشراب، وذلك بقوله: { وفي ذلك فليتنافس المتنافسون } أي

أن عباد الله لو ذاقوا بعضاً من ذلك الرحيق لتنافسوا في طاعة الله طمعاً في أن يكون ممن يرزقهم الله ذلك الرحيق في الجنة، وهذا البيان له مايؤيده فيما جاء في حديث مجالس الذكر:

يقول الله للملائكة الذين يشهدون أهل الذكر: { **فما يسألوني؟ قالوا: يسألونك الجنة، فيقول: فهل رأوها ؟ يقولون:لا والله يارب مارأوها، فيقول: كيف لو أنهم رأوها ؟ يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة** } رواه مسلم وبخاري

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ المطففين: ٢٧ – ٢٨

❖ **ومزاجه**: أي مزاج ذلك الرحيق.

❖ **تسنيم** : عين ماء خاصة بالمقربين، لايتنعم بها سواهم.

وقد ذُكرت أقوال عديدة في بيانها، وأمثل ماقيل فيها قول ابن عباس: هذا مما قال الله تعالى : { **فلا تعلم نفس ماأُخفي لهم من قرّة عين**} ومع ذلك فإن لنا باباً في بيانها يستند إلى دلالة اللفظ، وقد تبين لنا أن إطلاق الاسم في نص القرآن لايكون خلواً من دلالة اللفظ اللغوية، فالتتسنيم مأخوذ من سنام الشيء، وهو أعلاه، فكان من الوصف اللازم لهذه العين علوّها مكاناً ومقاماً، فأما علوها مكاناً فهي في عليين، لاشرب منها إلا المقربون، وأما علوها مقاماً. فهو اشتمالها على جملة مواصفات جعلها مميزة عما سواها من عيوب، أما بيان هذه المواصفات فلا سبيل إليه، لأنها مما يندرج في قوله تعالى: { **فلا تعلم نفس مأأخفي لهم من قرّة عين** }

❖ { **يشرب منها** } قيل: يشرب منها، في حين ان الآية استخدمت حرف الباء، وبين الحرفين اختلاف، فالحرف { **من** } يفيد التبعيض، أي شربون بعضاً منها وهي على حالتها التي تكون عليها، أما استخدام الباء فيفيد جملة دلالات من بينها الاستعانة كقولك: كتبتُ بالقلم. فقيمة استخدام الباء في الآية أن هذه العين تأتمر بأمر البار فيأتيه ماؤها على قدر مايشاء وكيفما شاء، وذلك مثل دلالة قولك: شربت من ماء العين

بالإناء، فإن استخدامك للإناء سيحدد مقدار ماتريد من الماء وعلى الوجه الذي تريد، وكذلك هي عين { تسنيم } تعطي عطاءها لكلّ بارّ على الوجه الذي يريد.

تعقيب عام :

هذا المقطع يذكر أمر المقربين في الجنة، أي في الفردوس الأعلى، فما علاقة هذا البيان بالمطففين ؟

بعد أن ذكر المولى عزوجل المطففين في جملة الفجار، ذكر مآل الأبرار فكان في ذكر الأبرار في سياق { المطففين } إشارة إلى من يترك التطفيف في الكيل والميزان مراعاة لأمر الله تعالى هو من جملة الأبرار، وعندما فصّل نعيم الأبرار ذكر في ذلك التفصيل لفظ المقربين، والمقربون هم من أمثال الأنبياء والصديقين و الشهداء والصالحين، فهل يكون التاجر الصادق الأمين معدوداً في زمرتهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم:

{ **التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء**} رواه الترمذي.

٤- المطففون والمؤمنون في الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ المطففين: ٢٩ ــ ٣٦

ذكر المولى عز وجل في هذه الآيات مشهدين متناظرين: مشهد الذين أجرموا مع المؤمنين في الحياة الدنيا، ومشهد الذين آمنوا مع الكفار يوم القيامة :

المشهد الأول

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ المطففين: ٢٩

هذه الآيات مُدْرجة في إطار عام وهو الذي يدل عليه اسم السورة، وكنا قد بينا وجه الارتباط بين المطففين والفجار والمكذبين بيوم الدين، وفي هذه ذكر الله عز وجل{ **الدين أجرموا** } وكان بالإمكان أن يُقال: الذين كفروا وذلك بالنظر إلى ماجاء في ختام السورة{ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** } ولكنه سبحانه اختار الفعل { **أجرموا** } لِمُضيِّه على نفس النسق الذي مضت عليه كلمة الفجار وأخواتها، وهو الدلالة على الكفار وسواهم من أهل الإسلام الذين يضحكون من أهل التقوى والإيمان، والضحك هنا ضحك استهزاء لاضحك سرور وحبور. ولم يجعله الله مجرد ذنب من الذنوب، بل جعله جريمة بقوله { **الذين أجرموا** } وقد نص الله على تحريم ذلك بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الحجرات: ١١

فالضحك من الآخرين سخريةٌ بهم، ومن يفعل ذلك فهو من الظالمين ظالم لغيره وظالم لنفسه فهو بذلك من المجرمين والكافرون لاتجدهم إلا مستهزئين بالرسل والأنبياء وبالمؤمنين. فجمع الله في قوله{ **الذين أجرموا** } بين هؤلاء وأولئك. وللمطففين نصيب كبير في هذه الصفة، لأن المطفف تاجر لايبالي كيف يكتسب من الناس، أم من حلال أم من حرام، وقال صلى الله عليه وسلم:

{ **المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبٌّ لئيم** } رواه أبو داود والترمذي والحاكم

غرّ : اي يغره كل أحد، ولايعرف الشر، وليس بذي مكرٍ ومظنة للشر، فهو ينخدع لسلامة صدره وحسن ظنه.

خبّ: الخبّ الخدَّاع والسَّاعي بين الناس بالفساد والشرّ

والمطفف فاجر خبّ لئيم، وأكثر من يسري عليهم خداعه هم المؤمنون وذوو النوايا الحسنة، فإذا تمكن المطفف من خداع غيره ضحك منه في قرارة نفسه، هذا من جهه المعنى الخاص للمطففين المستحقين لصفة الإجرام، أمّا من جهة المعنى العام، فإن الكفار والفجار من أهل الإسلام متلبسون بجريمة الاستهزاء بأهل الإيمان والضحك منهم في كل مكان وفي كل زمان، ووجه الطفيف في ذلك أنهم يكيلون في تقدير الناس بغير الكيل الذي يريدونه لأنفسهم، فهم يضحكون من المؤمنين، ويرفضون أن يضحك أحدٌ منهم .

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المطففين: ٣٠

هذه هي اللقطة الثانية في مشهد موقف المجرمين من المؤمنين، وهي لقطة حاضرة في واقع الإنسان على مرِّ الزمان، فالجماعة الخبيثة إذا مرّت برجل على تقوى من ربه. غمز كل واحدٍ منهم صاحبه بطرف عينه، وكأنه يقول له انظر إلى هذا المتخلف أو هذا الغبيّ .

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ المطففين: ٣١

هذه هي اللقطة الثالثة في مشهد الذين أجرموا، لاتقف سخريتهم بالذين آمنوا عند رؤيتهم، بل إنهم إذا عادوا إلى زوجاتهم أو إلى ذويهم خاضوا في الحديث عنهم فكهين، وفي هذه الكلمة دلالتان .

الأولى: الفكاهة، وهو الحديث باستهزاء وسخرية تستدعي ضحك المستمع .

الثانيــة: التفكّــة فــي المجــالس وهــو تبــادل الأحاديــث، فمتعــة المجــالس فــي مايُتــداول فيهــا مــن أحاديــث، وهــذا مايقترفــه المجرمــون فــي حــق المــؤمنين، يــذكرونهم ذكــر ســخرية واســهزاء، ويكثــرون الحــديث فيمــا يرونــه مــن أحواالهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ المطففين: ٣٢

تلــك هــي اللقطــة الرابعــة فــي مشــهد المجــرمين مــع المــؤمنين فــي الحيــاة الــدنيا، فهــم فــوق ضــحكهم وســخريتهم مــن الــذين آمنــوا يصــفونهم بصــفة الضلال، لأنهــم يــرون أنفســهم أنهــم هــم علــى حــق وصــواب ، وأن مــن يكــون على غيــر مــاهم عليــه ضــالّ. وهــذا مايفعلــه الكفــار مــع أهــل الإيمــان وكــذلك يفعلــه المجرمــون مــن أهــل الإســلام مــع المــؤمنين، فيتّهمــونهم بقلــة الــرأي ومخالفتهم لما هو سائد في زمانهم، وهو من معاني الضلال.

وقد أُكِّدت جملــتهم بمؤكــدين : إن واللام، وفــي ذلــك إشــارة إلــى قــوة اعتقــاد الكافرين والفجار في ضلال أهل الإيمان.

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ المطففين: ٣٣

لقد نصّب الــذين أَجْرمــوا أنفســهم قيِّمــين علــى أحــوال النــاس، فحكمــوا علــى هذا بالضــلال وعلــى الآخــر بالهدايــة، وهــم غيــر مخــوّلين بــذلك التقيــيم، لأن الله لم يُخوّلهم القيام بذلك. وفــي ذلــك تســفيه مــن الله عــز وجــل للــذين أجرمــوا، أمــا الحــافظون فهــم الملائكــة والرســل والأنبيــاء، لأن أحكــامهم أحكــام يقينيــة، أرســلهم الله ليكونــوا حــافظين علــى النــاس، فيســألهم عــن أحــوال هــدايتهم وضلالتهم في الدنيا والآخرة.

المشهد الثاني:

عرض المشهد الأول فعل الذين أجرموا مع المؤمنين في الحياة الدنيا، فجاء هذا المشهد ليعرض الصورة المقابلة لذلك المشهد يوم القيامة، وهي ضحك الذين آمنوا من الكفار:

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ المطففين: ٣٤

{ **فاليوم** } أي يوم القيامة .

- { **يضحكون** } أي يضحكون من الكفار إذ يرونهم في النار، بينما هم يتقلّبون في النعيم. وهذا الضحك إنما هو من باب القصاص وشفاء صدور المؤمنين مما لحقها من أذى ضحك المجرمين منهم في الحياة الدنيا وغمزهم وسخريتهم.
- ونلاحظ أن الآية اشتملت على لفظ { **الكفار** } الذي يوجه فقط إلى من كفر بالله، لا إلى العصاة من أهل الإسلام، فخالف بذلك دلالات: المطففين والفجار والمكذبين بيوم الدين والذين أجرموا التي تسري على الكافرين والعصاة من أهل الإسلام، **فلماذا جاءت هذه المخالفة** ؟

إن هذه الآية ترسم مشهداً ختامياً لأهل الجنة وأهل النار، بعد أن يُخرج الله من النار. كل من قال لاإله إلا الله، إلا من حبسه القرآن، أي ورد في القرآن أنه مخلّد في النار، كالذي يقتل نفساً مؤمنة، فلا يبقى في النار إلا الكفار، أي أن الذين أجرموا من أهل الإسلام يُخْرجُهم الله من النار بعد أن ينالوا نصيبهم من عذابها، ولايبقى من الذين أجرموا سوى الكفار وهم الذين يضحك المؤمنون منهم يوم القيامة .

وفي الآية ملحظ لطيف، وهو أن اقتصار ضحك المؤمنين على الكفار يوم القيامة قد يعني أنهم لايحققون هذا المشهد حال كون الذين أجرموا من أهل الإسلام في النار، وذلك مراعاة لما سيؤلون إليه، وهو سكني الجنة بعد

أن ينالوا نصيبهم من العذاب، وليس لمؤمن أن يضحك من أخيه المؤمن في دار الحق والسلام .

﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ المطففين: ٣٥

أي ينظرون إلى أولئك الكفار وهم يعذّبون في النار فيضحكون منهم، وذِكْر جلوسهم على الأرائك حال النظر إلى الكفار إشارة إلى أنهم لن يتكبدوا عناء القرب من النار للاطلاع عليهم، بل ينظرون إليهم وهم متكئون على الأرائك، لأن قوانين الرؤية البصرية للإنسان في الجنة أوسع مجالاً مما هي عليه في الحياة الدنيا، ولنا شاهد على ذلك في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم عندما سأله كفار مكة عن صفة المسجد الأقصى عندما أخبره بأنه قد أسري به إليهثم عاد منه في ليلته ، فرفع له المسجد الأقصى فشرع في وصفه، والمسجد الأقصى على مسافة آلاف الأميال.

فالمؤمن، وهو جالس على أريكته، إذا أراد أن ينظر إلى من يعذَّب في النار انكشفت الحجب أمام بصره، فيرى من يشاء منهم، بل إن الأمر أوسع من ذلك إذ يتخاطب أهل النار مع أهل الجنة على مابينهما من بعدٍ مكاني، قال تعالى:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأعراف: ٥٠

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ المطففين: ٣٦

ثُوِّب : بمعنى جُوْزي، فكان الجزاء من جنس العمل، فالفعل ثُوِّب مبني للمجهول وأصله ثاب يثوب أي رجع، بمعنى رجع عليهم فعلهم الذي كانوا يفعلونه في الحياة الدنيا، ولكن الفعل مزيد بالتضعيف، وهو مايجعله ذا مفعول به وهو { **ما** } الموصولة التي أصبحت نائب فاعل، لبناء الفعل لم يُسَمّ فاعله، فهم لم يَثُوبوا إلى ماكانوا يفعلونه من تلقاء أنفسهم، بل ثُوِّبوا،

أي هناك من ردّهم إلى صورة المشهد الدنيوي، ولكن الله صحح الصورة. فجعلهم مضحوكاً منهم، وجعل المؤمنين هم الضاحكون منهم.

- وفي الآية ملحظ لغوي وجيه، وهو أنها تصلح لأن تكون مستأنفة، وذلك على مابيناه، وقد تصلح لأن تكون مفعولاً به للفعل { **ينظرون** } أي ان المؤمنين كانوا يترقبون أن يفعل الله بالمجرمين ماكانوا يفعلونه بهم في الحياة الدنيا، أو أن يشهدوا بأم أعينهم جزاء الله لهم على ماكان منهم .

الخط البياني

وهو خط يبين الهيكل العام للسورة، وماهو عليه من ترابط

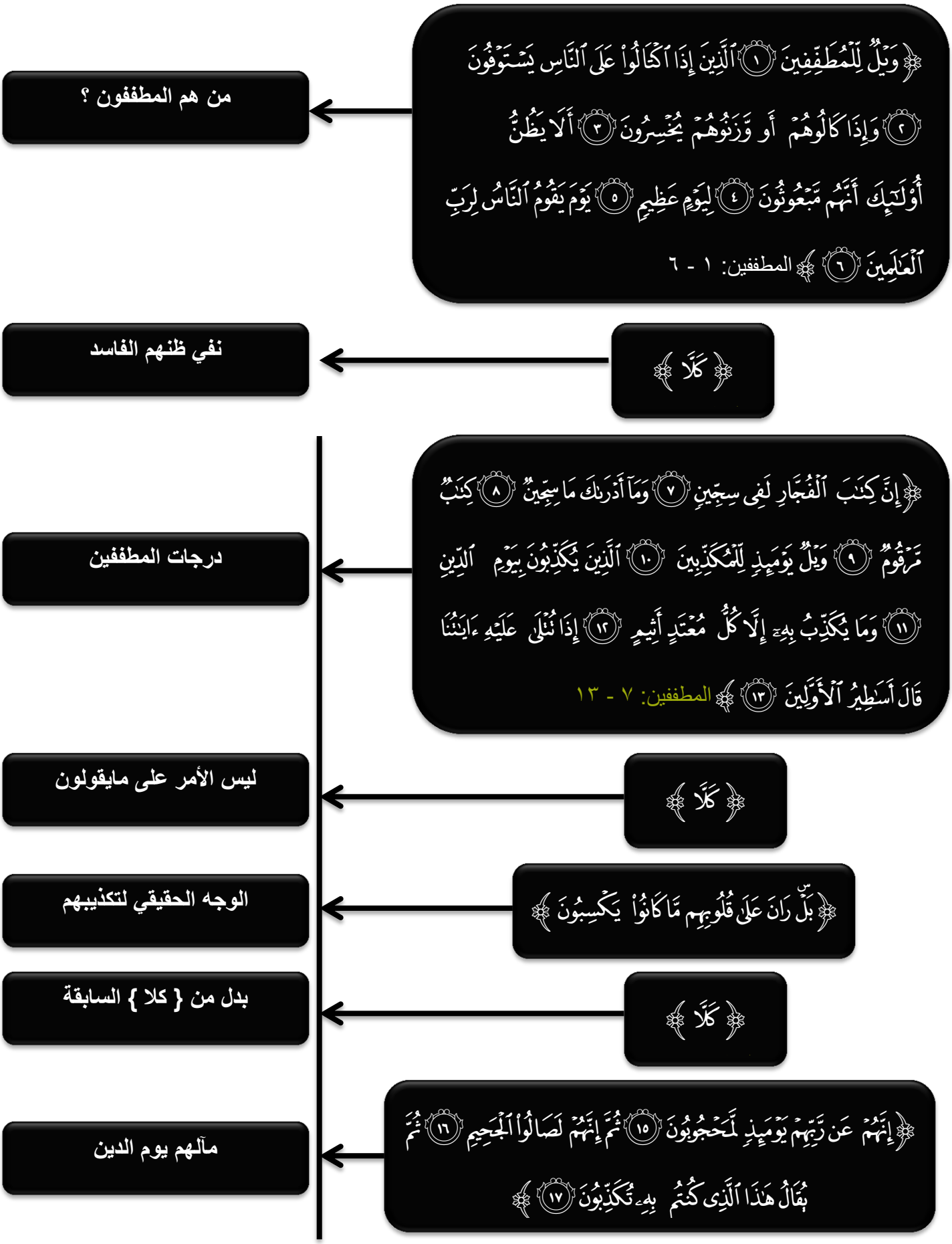

﴿كَلَّآ﴾

زجر بمعنى دع عنك ذا

مآل غير المطففين { الأبرار }

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ
مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ
مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

المؤمنون والمطففون في الدنيا والآخرة ؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا
مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ
﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ
حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

تمت بحمد الله

الفهرس

وما من كاتبٍ إلا سَيُفنى * * * ويُبقِي الدَهرُ ما كَتَبَت يداه

فلا تكتُب بكفكَ غير شيءٍ * * * يَسُرَكَ في القيامةِ أن تراه